

(١)

الاعتبار بالزمن ومصائر الأمم والدول قديماً وحديثاً

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ*} وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، **وبعد :**

فمن نعم الله (عز وجل) على الإنسان أن وهبه عقلاً فطناً يفرق به بين الحق والباطل ، ويميز به بين الخير والشر ، ويزن به الأمور ، ويتدبر به أحوال السابقين ، ويعتبر بمرور الأيام والسنين .

وإذا كنا نودع عاماً ونستقبل عاماً جديداً فعلينا أن نأخذ العبرة من مرور الليالي والأيام ، والشهور والأعوام ، ففي مرور الأيام عبرة ، وفي انقضاء الأعوام تذكرة وعظة ، يقول سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} ، فما الحياة الدنيا إلا عام يتلوه عام ، وأيام إثر أيام ، {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} .

ولقد كان من هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يذكر أتباعه بمرور الأيام وكرّ الأعوام ، وكان (صلى الله عليه وسلم) كثيراً ما يخاطبهم بقوله : (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فَانْتَهُوا إِلَيَّ مَعَالِمِكُمْ ، وَإِنَّ لَكُمْ نِهَآيَةً فَانْتَهُوا إِلَيَّ نِهَآيَتِكُمْ ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ : بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ ، فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَمِنْ الشَّيْبَةِ قَبْلَ

(٢)

الْهَرَمِ، وَمِنَ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ، فالعاقِل هو الذي ينظر في أيامه الماضية، فإن كانت عامرة بالأعمال الصالحة سأل الله تعالى المزيد، وإن وجد غير ذلك تاب إلى الله (عز وجل) توبة نصوحًا، فمن رحمته الله تعالى بعباده أنه يقبل توبة التائبين، بل إنه سبحانه أخبرنا في كتابه الكريم بأن المسلم عندما يتوب إلى الله توبة صادقة تتحول سيئاته إلى حسنات، يقول تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

ولقد عني الإسلام عناية بالغة بقيمة الزمن وأهميته، وحثَّ على ضرورة اغتنامه بالطاعات والقربات، وحذر أشد التحذير من التفريط فيه، فقال: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ}، فالزمن نعمة عظيمة ومنحة كبرى، يجبُ اغتنامها واستثمارها حتى لا تكون حُجبةً على الإنسان إذا ضيَّعها من بين يديه دون أن يرتقيَ إلى أحسن حالٍ، كما حثنا على ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ)، ثم أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على أهمية الزمن وقيمتها فقرر أن الإنسان مسئول عنه أمام الله (عز وجل) يوم القيامة، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟).

(٣)

ومن ثمَّ يجب الاعتبار بالزمن ، فإنه إذا مضى لا يعود ، ومن مجالات هذا الاعتبار : **الاعتبار بمصائر الأمم السابقة** ، وما حدث لهم بسبب عتوهم واستكبارهم ، وكفرهم بآيات الله ونعمه ، وعتوهم ، وخروجهم عن طريق الجادة إلى طريق الانحراف أو البغي والطغيان والاستكبار.

وقد قص علينا القرآن الكريم ما حل **بعاد** ، و**ثمود** ، و**قوم شعيب** (عليه السلام) ، وغيرهم من الأمم الغابرة التي أذاقها الله تعالى شتى أنواع العذاب ، بذنوبهم وجحودهم وظلمهم للناس ولأنفسهم ، فقال سبحانه: {فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

أما قوم عاد فقد قصَّ الله (عز وجل) علينا نبأهم وخبرهم في مواضع عدَّة من القرآن الكريم ، ليعتبر بمصيرهم المؤمنون ، فقد أنعم الله عليهم بالعلم والقوة ، فكانوا أعظم أهل زمانهم في الخلق، وأشدَّهم قوة وبطشًا، ومنَّ الله (عز وجل) عليهم بحضارة ومدنية حتى بنوا مدناً لم ير مثلاً لها ، قال تعالى: {الْمَ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}، ووصل بهم الحال إلى إهدار الوقت والقوة فيما لا طائل فيه ولا فائدة ، قال تعالى: {أَتَبْتُونَهُ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ}، وفتح الله (عز وجل) عليهم الكثير من أبواب الرزق ، لكنهم استخفوا بنبيهم واتهموه بالسفاهة قائلين: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، وحينئذ منح الله (عز وجل) عنهم رزقه ، فأمسك السماء فلم تمطر ، والأرض فلم تنبت ، حتى حلَّ عليهم العذاب ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا بطشهم من الله شيئاً ، وجعلهم عبرة لمن

(٤)

يعتبر ، قال تعالى: {فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ}.

وكذلك قوم سيدنا صالح (عليه السلام) الذين عاقبهم الله تبارك وتعالى بسبب استكبارهم وظلمهم وطمعانهم وعتوهم واستحبابهم العمى والضلال على الهدى والنور ، نور الحق والعدل والإيمان ، فقال سبحانه في شأنهم: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

وأما أصحاب الأيكة قوم سيدنا شعيب (عليه السلام) فقد أهلكتهم الله تعالى وعذبهم بالنار التي أحرقتهم وأحرقت الأموال التي اكتسبوها بظلمهم وعدوانهم وإفسادهم في الأرض ، وتطيف الكيل والميزان واستحلال أموال الناس بالباطل ، فقال سبحانه: {وَالِئِمْدَيْنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، فكانوا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون الناس أشياءهم ، ويطففون الكيل والميزان، فالبخس والتطيف من عناصر إفساد المجتمع ، ويؤديان إلى فقدان الثقة بين أفرادها ، وبسببهما تسود المجتمع حالة من الانحراف والمكر والخديعة، فتفسد القيم الإنسانية، لذا أهلكتهم الله (عز وجل) وجعلهم عبرة وعظة لكل من سار على دربهم ، قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا

(٥)

إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ}، ثم يأتي التحذير الإلهي العام لكل من تلاعب بأقوات الناس وحوائجهم ، وبخاصة تطيف الكيل والميزان ، فيقول الحق سبحانه: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ}.

كذلك من الذين قصَّ علينا القرآن الكريم خبرهم حتى نتفكر في أحوالهم ونعتبر بمصيرهم **أهل سبأ** ، الذين عاقبهم الله (عز وجل) بالسيل والظوفان بسبب جحودهم وبطريهم وعدم شكرهم لله تعالى على نعمه وكفرهم بنعمتي الأمن والرزق، قال تعالى : {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}.

وكذلك قوم سيدنا لوط (عليه السلام) الذين عاقبهم الله تعالى بألوان من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم ، حيث جمع لهم بين الإهلاك والرحم بالحجارة ، وقلب ديارهم على رءوسهم فجعل عاليها سافلها ، كل ذلك بسبب معصيتهم لأمر نبيهم وارتكابهم فاحشة لم يسبقهم إلى فعلها أحد من البشر ، قال تعالى : {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ * فَانجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}.

(٦)

ومن ثمَّ فإنه يجب علينا أن نأخذ العظة من مصائر الأمم الظالمة الطاغية المستكبرة ، ونعتبر بحال هؤلاء المكذبين الذين صار حالهم ومآلهم إلى الهلاك والدمار ، فمهما كانت قوتهم وحضارتهم فإنهم بكفرهم وعتوهم قد عرضوا أنفسهم للعقاب والهلاك ، ولنعلم أن أية أمة إذا سعت إلى الإفساد في الأرض كان ذلك سبباً في هلاكها ، يقول سبحانه: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ، ويقول (عز وجل): {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

من مجالات الاعتبار بالزمن: الاعتبار بمصائر الأمم المعاصرة، فإذا كان الاعتبار بحال الأمم الماضية أمراً واجباً ، فإن الاعتبار بحال الأمم المعاصرة أكثر وجوباً ؛ كي نتمكن من الوقوف على أسباب انهيارها وانكسارها وتعمل على تجنبها ، ولعل من أهم أسباب انهيارها:

انتشار الفساد بكل أشكاله من المجاملة والرشوة والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة ، وشيوع الظلم، وتدهور القيم، وضعف الانتماء الوطني ، وخيانة بعض

(٧)

الأفراد لوطنهم وعمالتهم واستخدامهم لضرب دولهم ، والمتاجرة بدين الله ، وإيواء الفكر الإرهابي المتطرف واحتضانه ، فإن ذلك كله من أهم العوامل التي تؤدي إلى انهيار الأمم وسقوط الدول ، لذا يجب علينا محاربة الفساد بكل صوره وأشكاله ، والعمل والإنتاج ، والجد والاجتهاد وحسن التكافل الاجتماعي ، ورعاية الضعفاء ، والضرب بيد من حديد على أيدي المغالين والمحتكرين والإرهابيين والمتطرفين والمفسدين والمخربين ، حتى نعبر جميعاً إلى بر الأمان .

فمن اعتبر بأحوال ومصائر الأمم قديماً والدول حديثاً ، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون ، وأن حماية الأوطان جزء لا يتجزأ من حماية الأديان.

فما أحوجنا اليوم إلى وقفة للعظة والاعتبار بمرور الزمن وبأحوال الأمم السابقة والمعاصرة ، فالعاقل من اعتبر بحال السابقين فسلك طريق المصلحين وهجر طريق المفسدين ، حتى لا يقع فيما وقع فيه المفسدون فيهلك كما هلكوا.

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.